

كراهية المؤمن لإرتكاب الذنوب

ومن الأخلاق القرآنية العظيمة ، والتي يحث عليها ديننا الحنيف وإيماننا الظاهر ، وأنفسنا الذاكية ، وسنتنا المطهرة ، كراهية المؤمن لارتكاب الذنوب ، واقتراف الآثام ، واجتراح السيئات ، وكسب المناكر ، لذا يقول الحق- سبحانه وتعالى- في محكم كتابه الكريم :- ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنُّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٣٣]

والمعنى إن دخول السجن أهون عليّ وأسهل من الوقوع في المعصية لا ان دخول السجن مما يجب على التحقيق ، وحكي أن يوسف -عليه السلام - لما قال " السجن أحب إليّ " اوحى الله إليه يا يوسف أنت حبست نفسك حين قلت السجن أحب إليّ ، ولوقلت "العاقبة أحب إليّ لعوقبت " وإلا تصرف عنى كيد النسوان ، وقيل النسوة اللاتي رأينه ، فأنهن أمرنه بمطاوعة امرأة العزيز وقلن له " هي مظلومة وقد ظلمتها " وقيل طلبت كل واحدة ان تخلوبه للنصيحة في امرأة العزيز ، والقصد من وراء ذلك هو أن تعدله في حقها وتأمره بمساعدتها فلعله يجيب ، فصارت كل واحدة تخلوبه على حدة فتقول له " يا يوسف اقض لي حاجتي فأنا خير لك من سيدتك ، تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده .

فقال يوسف-عليه السلام- يارب كانت واحدة فصرن جماعة .

وقيل هو كيد امرأة العزيز فيما دعته اليه من الفاحشة ، وكنى عنها بخطاب الجمع. إما لتعظيم شأنها في الخطاب ، وأما ليعدل عن التصريح إلى التعريض ، والكيد هو الاحتيال ، والاجتهاد ، ولذلك سُمّيت الحرب كيداً وذلك لاحتيال الناس فيها ، قال الشاعر " عمرو بن لجأ " :

تراعت كي تكيدك أم بشر وكيد بالتبرج ما تكيد

ونحن نرى إن الراجح هو امرأة العزيز وجاءت صيغة الجمع للتعظيم لأنها امرأة الملك وهذا هو الأنسب فى هذا المقام ، وليس المراد جميع النسوة ، فهو من غير المعقول . "واصب إليهن " يعنى أميل إليهن.

يقول الشاعر :

الى هند صبا قلبى وهند مثلها يصبى

والمراد هوان لم تلتطف بى في اجتناب المعصية وقعت فيها ، وأكون ممن يرتكب الإثم ، ويستحق الذم ، أو أكون ممن يعمل عمل الجاهل ، ودل هذا على ان أحدا لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله ، ودل أيضا على قبح الجهل والذم لصاحبه .

ففي هذه الآية الكريمة نرى " يوسف " - عليه السلام - يلجأ إلى ربه ويناجيه فى تضرع ، وخشية وخشوع ، وتذلل فيقول رب السجن آثر عندي وأحب مما يدعوننى إليه من اقتراف الذنوب ، وارتكاب المنكر ، وأسند الفعل إليهن لأنهن جميعاً مشتركات حيث أردن مؤازرة امرأة العزيز بالتصريح ، أو التلميح ، فإن لم تدفع عنى سرهن ، وتعصمنى منهن أمل الى إجابتهن وذلك بمقتضى البشرية حيث أنه بشر ، ولديه الغريزة ، يقول علماء النفس إن الغريزة تنشط بوجود المؤثرات . وها هو ذا وجد المؤثر وهو امرأة العزيز التي تراوده ، وتطلب منه الفاحشة ، وأكن من الجاهلين بسبب ما يطلبونه منه من القبح ، وفعل المنكر ، وهذا كله على سبيل التضرع ، والاستغاثة بالله سبحانه ، وذلك كعادة الأنبياء - عليهم السلام - والصالحين ولا غرو فإن يوسف - عليه السلام - أعطى شطر الحسن ورأى النبى - ﷺ - يوسف - عليه السلام - في السماء الثالثة قال فاذا هو قد أعطى شطر الحُسن .

وعن ثابت بن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - " أعطى يوسف وأمه شطر الحسن " ، وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال " اعطى يوسف وأمه ثلث الحسن " ، وقيل كان وجه يوسف - عليه السلام - مثل البرق ، وكانت المرأة اذا أنته لحاجة غطى وجهه مخافة ان تفتن به وأعطى الناس الثلثين ، وقيل أعطى يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث .

ولهذا ثبت في الصحيحين ان رسول الله - ﷺ - قال : " سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا اليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما انفقت يمينه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه " وقد اجتمع في يوسف - عليه السلام - اكثر من خصلة فهو شاب ونشأ في طاعة الله ودعته ذات منصب وجمال ودعته إلى نفسها فخاف الله .

هذا خلق يجب أن يحتذيه كل مسلم ، بل كل شاب وشابه ، يريد الاعتصام بالله ، فمن أراد العصمة من اقتراف الذنوب بنية خالصة وصادقة ، يسر الله له العصمة من الوقوع في الفاحشة وفي غيرها من المناكر ، التي نهى الله عنها فنية المؤمن خير من عمله ، ويقول النبي - ﷺ - " إنما الاعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى " .

ويقول الإمام المراعى في تفسير هذه الآية " ربي أنت العليم بالسرور والنجوى ، والقدير على كشف تلك البلوى ، إن السجن الذى هددت به ، والمكت في بيئة المجرمين على شظف العيش ، ورقة الحال احب إلى نفسى مما يدعوا إليه أولئك النسوة من الاستمتاع بهن في ترف القصور والاشتغال بجهن عن حبك وبقربهن عن قريك ، حيث ان النسوة خوفنه مخالفتها ، فقلن هل: أطع مولاتك أنلها ما تهوى ، لتكفى شرها ، وتأمّن عقوبتها ، وان لم تبعد عنى شراك كيدهن ، وتثبتي على ما أنا عليه من العصمة ، أمل إلى موافقتهن على أهوائهن ، وأقع في شباك صيدهن ، وارتع في حماة غوايتهن ، ويلجأ يوسف- عليه السلام - إلى الطاف ربه ويسلك سبيل المرسلين من قبله في فزعهم الى مولاهم الحق- سبحانه وتعالى- لينيلهم الخيرات ، ويبعد عنهم الشرور والموبقات وإظهارهم أنه لا طاقة لهم إلا بمعونته سبحانه ، وذلك مبالغة في استدعاء لطفه وعظيم كرمه ومنه ، وأكون بهذا الفعل القبيح من السفهاء الذين تستخفهم الأهواء وتتملك فيهم الشهوات ، فيحنون إلى ارتكاب الموبقات ، واجتراح السيئات فالذى يعيش بين هؤلاء النسوة الماكرات المترفات لا مهرب له من الجهل إلا أن تعصمه بما هو فوق الأسباب والسنن العادية . وفي هذا إيماء إلى أنه ما صبا يوسف إليهن ، ولا أحب أن يعيش معهن ، بل سأل ربه سبحانه أن يديم له ما عوده من كشف السوء عنه ، وذلك يتجلى في قول الحق سبحانه:- ﴿.....كَذَلِكَ أَنْصَرَفَ عَنْهُ السُّوءُ وَالْفَحْشَاءُ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ ﴿٤٤﴾ [سورة يوسف: ٢٤] فاستجاب له ربه وقبل دعاءه ، وصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع لدعاء من تضرع إليه ، وأخلص

الدعاء له ، العليم بصدق إيمانهم ، وبما يصلح أحوالهم ، وفي هذا إرشاد الى ان ربه سبحانه حرسه بعنايته ، وكلاًه برعايته ، وحفظه بحفظه في جميع أطواره وشؤونه ، ورباه أكمل وأعظم تربية ، وما خلاه لنفسه في أهون الأمور. (١)

وذلك دليل على إن المسلم اذا اعتصم بالله ، ودعاه ورجاه بنية صادقة فإنه من الذنوب ينجبه ، ومن السيئات يحميه ، وبالإخلاص ينقيه ، وظاهراً وباطناً يرقيه ، اللهم رقنا ظاهراً وباطناً آمين .

1- الكشاف ج ٢ ص ٤٦٧ .

- تفسير القرطبي ج ٥ ص ٣٤١٣ وما بعدها .
- تفسير المراغي ج ٤ ص ١٤١ وما بعدها .
- تفسير البيضاوي .
- حاشية الشهاب على البيضاوي بتصرف .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ ص ٤٧٧ بتصرف .